توظيف العلـوم الطبيعية في بناء علم كلام إسلامي
(المدرسـة المصريـة)

رزق يوسف على الشامى*

تمهيـــد :

لقد كان النصف الثانى من القرن التاسع عشر مصبا انهالت فيه وتراكمت الكثير من النتائج التى أفرزتها حملات الاستشراق والتبشير ، فكانت تلك الفترة من أشد فترات التاريخ الحديث ثورانا والتحاما بين كل من المستشرقين والمبشرين ، ففيها عمل الاستشراق بكامل قوته وطاقته حتى أطلق عليه زمن الاستشراق الذهبى ولم يكتف المستشرقون بالعمل الفردى ، وإنما حدث تكامل والتحام بين الفريقين ،فهما - كما نعلم- قد خرجا من تحت عباءة واحدة ، فكان طبيعيا أن يلتقيا فى النهاية حول هدف واحد وإن طال الأمد بينهما .

---

* مدرس بقسم الفلسفة الاسلامية - كلية الدراسات العربية . فرع الفيوم -جامعة القاهرة .

وقد تمثل هذا التكامل بين الطائفتين فى خدمة الأهداف العليا التى انطلقوا من أجلها ، فتعاونوا فى المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية ...ونحن هنا نلقى ضوءا خاطفا حول التعاون العلمى الذى استخدم فى حجب حقائق الإسلام عن الناس ، وسلب المنهج العلمى عن مفكرى الإسلام ونسبته إلى علمائهم ، والزعم بتبعية المسلمين لهم فى هذا المنهج .

ولعل السبب الذى ألف من اجله " الإسكندرانى" كتابه " كشف الأسرار" يوضح لنا شيئا من ذلك .

يقول الإسكندرانى : « اجتمعت فى محفل حافل سنة تسعن ومائتين وألف ببعض الأطباء المسيحيين ، فشرعوا يتحادثون فى كيفية تكوين الأحجار الفحمية، وفى أنها هل أشير إليها فى التوراة والإنجيل أم لا ؟ فبعد الأسئلة والأجوبة ، والقيل والقال ، وإجراء البحث والجدال ، حكموا وعولوا على أنه لايوجد لها ذكر فيهما أصلا، لا صريحا ولا إشارة تؤخذ منهما ، وتفهم فهما ، ثم خصصوا بى المقال ، ووجهوا إلى السؤال ، بأنه هل أشير إليها فى القرآن الشريف ، أم صرح بذكرها فى ذلك الكتاب المنيف ، وإن لم يشر إليها فيه بشىء ، فكيف قال تعالى : " ما فرطنا فى الكتاب من شىء "(١) ، وإن اشير اليه فيه ففى أى موضوع أشير اليها ،وفى أى سورة مضى عليها ؟ .....»(٢)

فهذا النص يدل على أن النصارى قد انشغلوا بهذه القضية منذ فترة ليست بالقصيرة ، واكبت الفترة التى ازدهر فيها الاستشراق ، لاسيما تلك الفرية التى افتراها "رينان" و " تنمان" حيث زعما ، أن القرآن الكريم هو الذى عاق التقدم العلمى والنظرى والعقلى لدى المسلمين (٣) .

---

(١) سورة الانعام ٣٨.

(٢) كشف الاسرار جـ ٣/١ .

(٣) تمهيد لتاريخ الفلسفة ص٥ ،٨ . ١٠، وانظر أيضا تنبيه العقول الإنسانية ص٤ . ٥ .

ثم إن هذه المحاورة التى دارت بين الإسكندرانى والنصارى قد دفعت الإسكندرانى لتأليف كتابه "كشف الاسرار" والذى يعتبر محاولة جادة وقوية فى البعث التراثى لهذه المسألة ، حيث قام بما يشبه الاستقراء للخط العلمى التراثى فى هذه المسألة مثبتا أصالته لدى علماء المسلمين وأن لهم قصب السبق فى هذا المضمار ، وقد اعتمد فى ذلك على كتب الطب والتفسير .... يقول الإسكندرانى (فتصدرت حينئذ للجواب ، وتلطفت فى التفهم والخطاب قدر طاقتى ووسعها ، لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ، وتتبعت كلام كثير من العلماء ، وتصفحت ألوفا من رسائل الفصحاء والبلغاء ، وتفردت فى طلبه من كتب التفسير والطب القاصية) [١].

أصالة المنهج العلمى لدى المسلمين :

وأبادر هنا بالقول بأصالة المنهج العلمى لدى المسلمين ، وقدرتهم على استخدام وتوظيف العلوم الطبيعية فى إظهار حقائق الكتاب العزيز ، وإبراز الأدلة والبراهين المؤيدة لقواعد الإسلام الحنيف ، وما الغرب إلا نقلة فى هذا المضمار فى القديم والحديث

أما برهان هذا القول فهو :

أ- أن استقراء جذور هذا الاتجاه لدى مفكرى الإسلام يظهر إسلامية المنهج والفكرة ، ويبدو ذلك من النظر فى مصنفات ابن حزم والغزالى والرازى وابن تيمية وابن القيم وغيرهم ، وقد فصلت الحديث عنهم فى موضع آخر [٢] .

ب-كما يؤكد هذه الحقيقة ويزيدها إثباتا ووضوحا واحد من بنى جلدتهم ، حيث يبرز لنا أن مسألة توثيق الصلة بين العلم والدين ومحاولة تسخيره فى خدمة القضايا الميتافيزيقية إنما هى فكرة عربية .

---

(١) كشف الاسرار حـ ٣/١ .

(٢) راجع رسالتنا للدكتوراه بعنوان : مناهج علم الكلام فى مواجهة القضايـا الفكرية المعاصرة ، مكتوبة على الآلة الكاتبة - بدار العلوم .

" فمنتجمرى وات " يحددبوضوح تام كيف أن أحد المسيحيين [١] قد اعتمد على مصادر عربية فى الربط بين علم اللاهوت والفيزياء ، وكانت ذروة هذا التيار لديهم فى عصر " توما الأكوينى " [٢].

يقول (وات) : « فأما العلوم فأيقظت اهتمامات علمية كانت قائمة قبلها ، ومن هذه الدراسات نبتت نظرة ميتافيزيقية وكونية أوسع ، ورغم أن علم اللاهوت لايقوم على أساس من علم الأكوان ، فإن الانسان لايمكنه أن يحتمل طويلا ، تناقضا جوهريا بين مفاهيمه الكونية وعقائده الدينيه ، ولهذا شرع علماء اللاهوت الأوربيون فى التوفيق بين النظرية المسيحية وهذا العلم الجديد ، وقد استخدم توما الاكوينى ثمار جهود السابقين عليه فى بناء نظام فكرى رائع التنسيق ، وفق فيه بين العلم والفلسفة والنظرية الدينية جميعا ، وبهذا أمكن تبرير الزعم المسيحى بأن بوسع المسيحية أن تستهوى منطق الناس وعقولهم »[٣] .

فمن الواضح أن علماء المسلمين قد وضعوا منهجا للتحصيل العلمى الدينى ، وجعلوه يبدأ من العلوم الكونية كالطب والفلك والرياضة ، وكان الغزالى وكتابه (تهافت الفلاسفة) قد ركز فى نقده على ضرورة توجيه البحث المعرفى إلى عالم الظواهر والكونيات لأن هذا هو المجال الطبيعى لعمل العقل [٤] بدلا من الخوض فى التفكير

---

(١) هو (جند يسالقى) ، الذى كان يعمل مترجما فى الديوان الذى أسسه كبير أساقفة طليطلة، وقد عمل بمعاونة بعض اليهود ، حيث كان يترجم له يوحنا الإشبيلى من العربية الى الأسبانية ، ويترجم هو من الإسبانية الى اللاتينية ، وذلك فى الفترة ما بين (١١٣٠- ١١٥٠) انظر تاريخ الفلسفة الأوربية ليوسف كرم ص٩٤ .

(٢) فضل الإسلام على حضارة الغرب ص٩٥.

(٣) المصدر السابق ص١٠٦.

(٤) الدين والتدافع الحضارى ٢٠٤, ٢٠٧ .

فى ذات الله تعالى وصفاته، وقد أخذ الكاثوليك عن المسلمين هذا المنهج عند إنشاء الجامعات وتبنته كنائسهم وأقام عليه فرنسيس بيكون فلسفته ، ومن يومها ارتفع مستوى تعليم اللاهوت واتسعت ثقافة رجال الدين الغربيين [(١)] .

جـ- وإذا كان ما سبق يدور حول الجذور الأولى ، فإن هناك أيضا إشارات توضح أن الأمر أمر اقتباس. والتأثر لم يقتصر على تلك الفترة السابقة وإنما تعداها إلى العصر الحديث،فكان تجديد هذه المعرفة العلمية وتدعيمها أيام الجبرتى الكبير حيث كان يأتيه الإفرنج يتلقون على يديه العلوم المختلفة ، ثم عادوا إلى بلادهم ونشروا تلك المعارف والعلوم فأخرجوها من القوة إلى الفعل .

وهنا ينبهنا الشيخ محمود شاكر إلى حقيقة مهمة وهى أننا ينبغى ألا ننخدع بهذا الفرق الهائل بين الحضارتين فيقول : « لا تنظر إلى الفرق الهائل الكائن اليوم بين الشمال المسيحى والجنوب الإسلامى فإنك إن فعلت ضللت عن الحقيقة . والحقيقة يومئذ أن الفرق بيننا وبينهم كان خطوة واحدة تستدرك بالهمة والصبر والدأب والتصميم لا أكثر ، بل أكبر من ذلك ، فإن اليقظة الأوربية كانت بعد فى أول الطريق وتتكىء اتكاء شديدا على ما كان عندنا من العلم المسطور فى كتبنا برموزه التى تحتاج إلى استبانة وفهم ، وعلى العلم الحى الذى عند أهل دار الاسلام »[(٢)] .

وإذا أردنا أن نرصد الاتجاه العلمى ودوره فى تسخير الحقائق العلمية فى تأييد المسائل الدينية ، فسنجد أنه قد سار على خطى السلف فى كثير من مسائله ، وكذلك منهجه ، ولرأينا أيضا أنه كان مثل حلقة فى يقظة هذه الأمة ، وإن كانت يومئذ متباعدة،إلا أن امتنا (لم تكن منقطعة الصلة الفكرية بالعلم ، بل كان العلم المادى فى تراثها ، وفى روحها ، وفى تاريخها، وإن لم يكن فى واقعها بحكم دورة التخلف

---

(١) مقدمة لتاريخ الفكر العلمى فى الاسلام ص١٨٠ .

(٢) رسالة فى الطريق الى ثقافتنا ص١٢٧ .

والتقدم التى تتعرض لها كل ظواهـر الكون) [1] .

وإذا كنا سنركز فى هذا البحث على شخصيات مصرية ، فإنه لايفوتنا أن نشير إلى مسألة مهمة ، وهى أن المدرسة المصرية لم تنفصل عن المدرسة الشامية وإنما كان التواصل والالتحام قائما ، ويدل على ذلك أن الإسكندرانى الذى هو محور هذا المبحث قد نضج منهجه بين أحضان هذه المدرسة ، ومن أهم أعلام المدرسة الشامية - إبراهيم الحورانى (١٢٦٠- ١٣٣٤ =١٨٤٤ -١٩١٦) ، وحسين الجسر (١٢٦١ - ١٣٢٧ = ١٨٤٥ - ١٩٠٩م)،وابنه نديم الجسر ، وغيرهم .

أما أعلام المدرسة المصرية فى هذه الفترة فمنهم : عبدالله فكرى (١٢٥٠ - ١٣٠٦ = ١٨٣٤- ١٨٨٩م) ومحمد ابن أحمد الإسكندرانى (١٣٠٦= ١٨٨٩) والشيخ محمد بخيت المطيعى (١٣٥٤/١٢٧١)= ١٩٣٥/١٨٥٤) ، محمد توفيق صدقى (١٣٣٨/١٢٩٨= ١٩٢٠/١٨٨١م) والشيخ طنطاوى جوهرى (١٩٤٠/١٨٦٢م) ، عبد العزيز باشا اسماعيل (١٣٦١/١٣٠٦= ١٩٤٢/١٨٨٩) ومحمد أحمد الغمراوى (١٨٩٣ - ١٩٧١م) .

---

(١) محمد جلال كشك - ودخلت الخيل الازهر ص٤٩٠، وقارن رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا ص٢٧ . ويلفت المؤلفان النظر إلى موقف المشايخ من التكنولوجيا ، والتنبيه على أنه ليس للزعم القائم بأن الحملة الفرنسية كانت بداية تطويرنا ، ليس لهذا الزعم وجه من الصواب لأنه زعم مبنى على الجهل بالتاريخ ، وتزويره فى الوقت ذاته ، كما أنه لايمكن للباحث أن يفصل الحملة الفرنسية عن التاريخ السياسى للاستعمار الفرنسى . ودخلت الخيل الأزهر ٣٢٨-٢٥ .

سمات المدرسة المصرية :

١- وضوح الهدف والمقصد من دراسة العلوم الطبيعية، فلم يكن الغرض هو تفسير القرآن الكريم تفسيرا علميا ، وإنما اعتبرت هذه العلوم كنوع من العلوم الفرعية التى يستأنس بها فى الاستنباط باعتبار تحقق الكثير من الفوائد فى فهم أسرار الحق فى خلقه . أو بعبارة أخرى ، إنها قد اعتبرت تمهيدا لفهم الحقائق القرآنية وإدراك معانيها ، وذلك من خلال إلقاء الضوء على الدليل العقلى بواسطة التحليل العلمى الذى تظهره التطورات العلمية المعاصرة ، فكلية الحقائق القرآنية وشمولها يتطلب ذلك ، ومن ثم كان هذا البحث بناء على مطلب شرعى [١].

٢- أن هذه المباحث فى مجملها قد اشتملت على كثير من مسائل الإيمان ، وإن بدت بعض المحاولات فى ذلك جزئية ، والمقصود أنها تضمنت إقامة الأدلة الكونية على إثبات وجود الله تعالى ، وصفاته ، والنبوة والبعث والملائكة والقضاء والقدر .....

ومما يؤكد الاهتمام بهذه العلوم من منظور عقدى ، أن دعوات كثيرة قد ظهرت بضم بعض هذه العلوم أو على الأقل ربطها بالتوحيد ، كعلم التشريح، وعلم الهيئة . يقول بعضهم : إن علم الهيئة أحرى بعلمائنا أن يتعرفوه ، وبعامتنا أن يتذوقوه ، وخليق بنا أن نجعله فرعا من فروع التوحيد [٢].

٣- كانت الأسس والضوابط التى تعصم من الانحراف فى التسخير والاستخدام ، واضحة وماثلة فى أذهانهم ، فأثبتوها وسجلوها ، وعلى الرغم من ذلك ، فلقد لقيت هذه المدرسة معارضة - لعل من أسبابها :-

---

(١) حسن البنا : حديث الثلاثاء فى مواطن متفرقة ٣٦، ٣٧، ٥١، ٤٢، ٤٠، ٤١، ٩.

(٢) رضوان شافعى : التوفيق العلمى بين الحضارة والإسلام ص٧٧.

- الانحراف فى تطبيق المنهج ، وبمعنى أدق فى تطبيق أجزائه، الأمر الذى كان يقتضى التصحيح والإرشاد والصد والمجابهة .

- غلبة الجانب التوفيقى على الجانب التسخيرى .

٤- ومن الخصائص المهمة التى أود تسجيلها هى وجود تباين بين تسخير العلوم فى عصرنا ، وبين تسخيرها لدى القدماء ، هذا التباين لابد من تأمله جيدا ، فالاستدلال الكلامى المعاصر كما هو معلوم يوظف النتائج العلمية ، وهذا أمر لاغبار عليه ، وله قيمته التى لا يستهان بها ، إلا أنه منهج لا يكتسب الأهمية وقوه البرهان فى إقامة الدليل ، مثل ما يكتسبه التجريب النابع من المسلم ذاته .

فالتطبيق والممارسه التى يقوم بها المسلم تجعله يعيش البرهان والدليل بخلاف من يقدم له الدليل جاهزاً ، فمن يقدم له الدليل أشبه بالمقلد فى العلوم النظرية ، وتلك سمة العصر ، أما الممارسة فهى ذات تأصيل برهانى فى النفس الإنسانية لا ينتزع. وهذا هو الذى يحقق المعاصرة المطلوبة . أما مجرد المحاكاة فلا تحقق شيئا من ذلك ، إذ المعاصرة ليست نقلا أو محاكاة عن الغير ، وإن بلغت هذه المحاكاة ذروتها ، فالمحاكاة من شأنها قتل الإبداع ، ومن هنا كان لابد من (تأصيل ثقافتنا الإسلامية والاسترشاد بها فى تدريس العلوم المختلفة ، لأنها أكسير الحياة للأمة ، والمجدد الدائب لطاقتها والباعث لها على المشاركة فى مقومات العصر كلها ، مع الحفاظ على إنسانية الإنسان) [(١)].

ومن هنا فقد وقع اختيارى على الإسكندرانى - محور هذا البحث - باعتباره يمثل المدرسة المحافظة وسط هذا الحشد الهائل من التيارات ، وفى هذه المرحلة من النهضة العلمية ، وفترة البعثات ، وتحدد حركة الترجمة فى عصر محمد على ، إلا إنك ترى فى هذه "الشخصية قدرة على الاحتفاظ بالذاتية .

---

(١) أحمد فؤاد باشا : فلسفة العلوم بنظرة علمية ص٢٨ .

(أ) الإسكندرانى ومنهجه

نبذة عن حياته :

هو محمد بن أحمد الإسكندرانى ، الطبيب ، من أهل الإسكندرية ، باحث شارك فى بعض العلوم ، اهتم بدراسة الطب وانهمك فى دراسته ستين وأعواما.

عمل فى العسكرية البحرية المصرية بثغر الإسكندرية ، وظل بها حتى عام ١٢٥٦ ثم رحل بعدها إلى دمشق ، فحدث أثناء تواجده بها أن انقطعت العلاقات بين الدوله العليا والخديوية المصرية ، فتولى رئاسة أطباء العساكر السلطانية حتى سنة ١٢٥٨ .. ثم عمل بعد ذلك طبيبا بدمشق وقام بمداواة الأماثل الأعلام هناك إلى أن توفى بها سنة ١٨٨٩/١٣٠٦.

ومن مؤلفاته التى تركها لنا :-

١- الأزهار المجنية فى الهيضة الهندية .

٢- كشف الأسرار الربانية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية .

٣- تبيان الأسرار الربانية بالنباتات والمعادن والخواص الحيوانيه .[1]

منهجـــه :

انطلق الإسكندرانى فى منهجه مقررا مسائل الإيمان ودلالتها بعيدا عن الجدل والمراء ، مظهرا ومؤكدا ذلك من خلال تفسيره للآيات القرآنية الكونية التى تعين الناظر فيها والتالى لها على إثبات المسائل بسهولة ويسر مما يدل على أنها أدلة إنما سيقت فى المقام الأول لإنشاء العقائد الحقة، وتقويتها بعد تثبيتها فى القلوب والأفئدة.

---

(١) انظر فى ترجمته : مقدمة كشف الأسرار له ٣/١ ، الأعلام للزركلى ٢١/٦ ط٧ ،كحالة :معجم المؤلفين ٢٣٣/٨، معجم المطبوعات ٤٣٨/١، إيضاح المكنون ٣٥٦/٢ وفيه أنه توفى سنة ١٣٠٧ .، إكتفاء القنوع ص٤٤٦ .

وقد تركزت أقواله فى كتابيه : كشف الأسرار، وتبيان الأسرار.ففى الأول قسم الحديث عن الدلائل الدالة على المسائل إلى ثلاثة أقسام هى أجزاء الكتاب . فقد ضمن الجزء الأول دلائل الأنفس ، واستغرق الجزء الثانى دلائل الآفاق ، أما الجزء الثالث فقد فصل القول فى النباتات والأشجار ومنافعها وفوائدها للإنسان وما فيها من دلالات قوية ، ومؤثرة فى العقل والوجدان ، تثبت وجوده سبحانه وتعالى ، وتؤسس اليقين بمسائل الدين وأصوله .

أما كتابه تبيان الأسرار ، فيعتبر متمما للمنهج وإن كان قد اعتنى فيه بقضية التوفيق بين العلوم والشريعة،كما سنبينه بإذن الله تعالى . والآن قد حان تفصيل القول فى المنهج .

دلائــــل الأنفـــس :

تعتبر دلائل الأنفس من أقرب الأدلة إلى الإنسان ، فهى لاتحتاج فى البحث عنها أو الوصول اليها ، كبير عناء ، اللهم إلا بقليل من التأمل والتبصر ، ولما كان الإسكندرانى قد جعل أسس المنهج وبداية المنطلق القرآن الكريم ، فقد عمد إلى دلائل الأنفس مستخرجا إياها من إشارات القرآن الكريم وبيانه، فاستخرج الآيات القرآنية التى دارت حول الإنسان من حيث خلقه الأول عن عدم ثم جاء مفصلا تلك المراحل ، وكذلك ما تلا هذه المراحل من مرتبة ثانية اشتملت كذلك على مراحل أخرى مغايرة . متخذا من ذلك أدلة وبراهن على وجود الصانع ، وإثبات البعث وثبوت العناية بالخلق ومن أهم الوجوه التى ذكرها فى دلالة الإنسان على الله تعالى ما يلى :-

أ - أن التركيبات العجيبة فى بدن الإنسان كثيرة ، فيكون تولده عن المادة أدل وأظهر على وجود القادر المختار ، لذلك فقد استفاض فى تشريح الأعضاء المختلفة فى الإنسان كما أسهب القول فى الحديث عن النطفة ومراحل الحمل ، وكان تجميعه للآيات المتصلة بالإنسان ، مبينا أنه لاتعارض ولاتناقص بين الآيات التى تظهر أنه خلق من تراب والآيات التى تظهر أنه خلق من نطفة .

ب-أن دلالة الإنسان على أحوال نفسه أكثر من اطلاعه على أحوال غيره وهذه

الدلالة أتم .

جـ- أن مشاهدة الإنسان لهذه الأحوال فى أحواله وأحوال سائر الحيوانات دائمة فكان الاستدلال بها على الصانع المختار أقوى [١] .

وأما من حيث دلالتها على البعث والقيامة فإن (حدوث الإنسان إنما كان بسبب اجتماع أجزاء متفرقة فى بدن الوالدين بل فى جميع العالم ، فلما قدر الصانع على تلك الأجزاء المتفرقة حتى خلق منها إنسانا سويا) . وفى هذا دلالة قوية على قدرته تعالى على جمع بدنه بعد تفرقه وإنشائه إنشاء آخر [٢] .

فهذا الخلق من التراب الذى لم يشم رائحة ، وتقلبه من طور الى طور ، وكذلك المراتب المختلفة التى يتقلب فيها أبناؤه ، إنما تعتبر أشد بيانا وأهون فى القياس نظرا إلى الفاعل والقابل .

ثم يستدل من حياة الإنسان فى هذا الحياة الدنيا التى هى كما أخبر المولى سبحانه أنها حياة مليئة بالتعب والمشقة والألم كما فى قوله :(لقد خلقنا الإنسان فى كبد)[٣]، يبين الإسكندرانى أنه لايليق بالرحمة الإلهية أن تترك الإنسان وتخلقه لمجرد التعب والكبد ،وإنما لابد أن تكون هناك حياة أخرى بعد هذه الدار تتحقق فيها السعادة واللذة [٤].

وأما من حيث ثبوت التسوية والعناية بالإنسان فالمراد أن كل جزء من الجزئيات الجسمانية مستعدة لقوة خاصة ، وكل قوة فإنها لاتصلح إلا لفعل معين ، فالتسوية والتقدير عبارة عن التصرف فى الجزئيات الجسمانية وتركيبها على وجه خاص لأجله تستعد لقبول تلك القوى) [٥] فكل جزء فى البدن قد أودع الله تعالى فيه منفعة

(١) كشف الأسرار ١/٤٧.

(٢) كشف الأسرار ١/٤٧ .

(٣) سورة البلد ٤ .

(٤) كشف الأسرار ١/٣٣ .

(٥) تبيان الأسرار ص١١٤ ، وانظر ص١١٢ ، ٨٢ .

خاصة به ، وهذا إنما يحتاج إلى رعاية خاصة لكل واحد منها ، ورعاية كيفية الامتزاجات والتركيبات وما إلى ذلك [1].

دلائل الآفاق :

وأما دلائل الآفاق فإنا نراه يبين أثناء حديثه عن تفسير الآيات القرآنية أن من يعترض على الاستدلال أو الإكثار من إيراد علم الهيئة والحديث عن النجوم والاستدلال بها على وجود الصانع ، من يعترض على ذلك هو فى نظره نوع من الحمق والتعصب . ثم مضى يؤيد رأيه دافعا هذا الاعتراض بما يلى :-

أ - أن علم الهيئة ليس له معنى إلا التأمل فى كيفية بناء الله تعالى للسماء وما فيها .

ب- أن الله - سبحانه وتعالى - قد استدل على علمه وقدرته وحكمته بتعاقب الليل والنهار والظلمة والضياء وأحوال الشمس والقمر والنجوم ، وقد ورد هذا كثيراً فى أكثر من سورة فى القرآن الكريم .

جـ- دعوة القرآن الكريم للتأمل فى كيفية بناء السماء كما قال تعالى : (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج)[2].

د- مدح القرآن الكريم أولئك المفكرين فى خلق السماء والأرض فقال : (ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا) [3] .

هـ- أن التفكر فى هذه المخلوقات هو نوع من التفصيل والبيان لما هو مجمل فى كتاب الله العزيز ، وهذا من شأنه تقوية الدليل والبرهان ومن ثم زيادة اليقين والاعتقاد ، فالتفصيل يظهر (فى كل نوع من أنواع هذا العالم حكمة بالغة وأسرارا عجيبة فيصير ذلك جاريا مجرى البراهين المتواترة والدلائل المتوالية

---

(١) كشف الأسرار ١٦/١ .

(٢) سورة ق ٦ .

(٣) سورة آل عمران ١٩١ .

على عقله ، فلايزال ينتقل كل لحظة ولمحة من برهان إلى برهان آخر ، فكثرة الدلائل الدلائل وتواليها له أثر عظيم فى تقوية اليقين وإزالة الشبهات (١).

ومن أهم مسائل الإيمان التى استدل بالعلم وأدلتها عليها ، مسألة الاستواء وقد كانت قديما مثار جدل شديد على المستوى العقلى ، وما زالت بعض آثارها حتى وقتنا هذا ، أقول استخدم " الإسكندرانى" علم الهيئة فى إثبات هذه المسألة وهو فى هذا يحتذى حذو من سلف أمثال ابن تيميه (٢).

دلائـــــل الآلاء :

ويأتى الجزء الثالث من " كشف الأسرار" جامعا الآيات الشريفة التى تتضمن ذكر النباتات والأشجار والثمار وما تحتوى عليه من بدائع القدرة الإلهية ، مستدلا بذلك على وجود الخالق سبحانه وتعالى وإثبات التوحيد ، مظهرا مالها من تأثير على القلوب والأفئدة ، ومالها من آثر كبير فى تقوية الإيمان برب العالمين .

والإسكندرانى عندما يستخدم هذه الآيات فى إثبات وجود الله وتوحيده ، ينظر إليها من زاويتين ، الأولى كونها نعمة ، ولذلك رأيناه يستطرد فى بيان منافعها الغذائية ومدى حاجة الإنسان إليها ، الثانية باعتبارها أحد الأدلة ، لأن الدليل إذا احتوى نعمة كان دليلا قويا وكان تأثيره فى القلوب أشد .

فآيات القرآن الكريم تحمل الدلالتين معا ، فهى دليل من ناحية ونعمة من ناحية أخرى ، ففى قوله تعالى : (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء) (٣) ، يقول الإسكندرانى : (أعلم أن هذه الآيات الشريفة كلها دالة على كمال القدرة لله تعالى وعلمه وحكمته ورحمته ووجوه إحسانه إلى خلقه .

---

(١) كشف الأسرار ٣/٥٦ ، ٣/٦٧ .

(٢) انظر كشف الأسرار ٢/٥٤، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨. وقارن فى ذلك ايضا ما ذكره ابن تيمية فى الرسالة العرشية .

(٣) سورة الأنعام ٩٩ .

واعلم أيضا أن هذه الدلائل كما أنها دلائل فهى أيضا نعم بالغة وإحسانات كاملة . والكلام إذا كان دليلا من بعض الوجوه وكان إنعاما وإحسانا من سائر الوجوه كان تأثيره فى القلوب عظيما ، وعند هذا يظهر أن المشتغل بدعوة الخلق إلى طريق الحق لا ينبغى أن يعدل عن هذه الطريقة "[1] .

ويشير الإسكندرانى إلى منهج القرآن الكريم فى الدعوة إلى التوحيد من خلال النظر فى المخلوقات وما تخرجه الأرض من نخل وزرع وزيتون ورمان .... يتضح ذلك من خلال الآيتين التاليتين : -

قال تعالى : (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمرة إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) [2] .

وقال تعالى : (وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمرة إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) [3] .

ففى الآية الأولى نلاحظ أن الأمر الإلهى فيها يوجه الناس إلى النظر فى أحوال النباتات والثمار المختلفة ، وتسخيرها فى الاستدلال على وجوه الصانع الحكيم ، وأما الآية الثانية ففيها إذن بالأكل من هذه الثمار وصرف جزء منها إلى الفقراء (فالذى حصل به الامتياز بين الآيتين أن هناك أمراً بالاستدلال بها على الصانع الحكيم ، وههنا إذن فى الانتفاع بهما ، وذلك تنبيه على أن الأمر بالاستدلال على الصانع الحكيم مقدم على الإذن فى الانتفاع بها ، لأن الحاصل من الاستدلال بها سعادة روحانية أبدية

---

(١) كشف الاسرار ٥٦/٣ ، ٦٧/٣ .

(٢) سورة الانعام ٩٩ .

(٣) سورة الانعام ١٤١.

والحاصل من الانتفاع بهذه سعادة جسمانية سريعة الانقضاء..والأول أولى بالتقديم فلهذا السبب قدم الله تعالى الأمر بالاستدلال بها على الإذن بالانتفاع بها " [1] .

منهجه فى التوفيق :

يظهر لنا منهجه فى التوفيق فهما عميقا منه للقضية ، فلم يقع فيما وقع فيه غيره من أرباب هذا الاتجاه ، فهذه القضية لم تبد واضحة " فى كشف الاسرار " ولكنها ظهرت فيما بعد لديه فى كتابه "تبيان الأسرار" ، ولكنها على الرغم من ذلك لم تكن هى القضية المحورية التى دار الكتاب حولها . ولكن كانت تأتى فى نهاية المباحث وكأنها نتيجة طبيعية يستنبطها القارىء من خلال نظره فى الكائنات .

فمنهجه كان يتسم بالتفصيلات العلمية المختلفة فى صورة ميسرة ، حيث نراه يتخذ من كتابه " تبيان الأسرار " منهجا وسبيلا يرشد الشباب والناشئة إلى معرفة الخالق سبحانه وتعالى وذلك من خلال النعم والألاء التى أسبغها علينا .

ومن الأمثلة التى بين فيها التوافق بين العلم والدين ، قضية التغذية وكيفيتها فنراه يضع الضوابط والشروط الطبية التى ينبغى الالتزام بها حتى يظل الجسم سليما صحيحا ويظل مفسرا ومشرحا الأعضاء المختلفة مؤجلا مسألة التوفيق إلى ختام الحديث فيقول : " فإن قلت إن نفسك متشوقة أن تقول إن علماء الطب قد دونوا فيه أحكاما أم لا ؟ قلت لك إن شاء الله تعالى عند الكلام على ما يتعلق فى البلعوم من بعد استيفائك على ما يخص الأغذية بتمامها أورد ذلك " [2] .

وتأتى الإجابة على ذلك بتجميع الآيات المتعلقة بأحكام الطعام المختلفة من القرآن والسنة كقوله تعالى : -

(وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيبا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) [3].

---

(١) كشف الأسرار ٧٢/٣ .

(٢) تبيان الأسرار ص٣ . ٢٩ . ١٣٣- يلاحظ أنه قد جعل كتابة عبارة عن حوار بينه وبين ولد له - مع العلم بأنه كان عقيما،يقول : "فلما تحركت فى نفسى تلك الخواطر صرت أحدث نفسي كأنه لى غلام " تبيان الأسرار ص٣ .

(٣) سورة المائدة ٨٨ .

(يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) (١) هذا فيما يتعلق بأحكام الطعام ، أما فيما يخص نوعية الطعام وكيفية الاستفادة منه فقوله تعالى :

(وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون) (٢) .

سمات المنهج لدى الاسكندرانى :

يمكننا أن نلخص السمات العامة لمنهج الإسكندرانى فيما يلى : -

١ - لقد عمد الإسكندرانى إلى الآيات القرآنية المتعلقة بدلائل الأنفس ودلائل الآفاق ، وكذلك كل ما يتصل بالنباتات والأشجار والحيوانات مما ورد فى القرآن الكريم ، وماله منفعة ، أو الآيات التى اشتملت على إشارات إلى الأسرار الكونية الكامنة فى الأشياء ، عمد إلى ذلك كله فجمعه وجعله مدار حديثه فى كتابيه " كشف الأسرار ، تبيان الأسرار " وهو بذلك يعد من أوائل، إن لم يكن أول من جمع الآيات الكونية لا سيما فى العصر الحديث .

٢ - لم ينظر إلى ما كتبه على أنه تفسير علمى للآيات - كما فعل غيره - وإنما يبدو من منهجه أنه كان يجعل ذلك التشريح والحديث العلمى حول الآيات ، نوعا من الحث على النظر والتأمل العميق فى الكون والإنسان وما خلق الله تعالى وكل ما يستثير الوجدان ويدفعه نحو تأكيد وتأسيس اليقين ، وذلك من خلال وقوفه على تلك النعم المتعددة . يقول الإسكندرانى : " فإن من جملة بدائع القدرة فى المخلوقات إيجاد الأشجار والثمار والنباتات والتأمل فى كيفية تكونها مما يقوى الإيمان برب الأرض والسماوات " (٣) .

---

(١) سورة المائدة ٨٧ .

(٢) سورة الواقعة ٢٠ ، ٢١ .

(٣) كشف الاسرار ٢/٣ .

٣ - اعتمد فى تفسيره للآيات الكونية على التفاسير السابقة ، فلقد كان يورد بعض الأقوال التى قيلت فى تفسير الآية من المنقول والمعقول ، وكذلك كان يشير إلى القراءات القرآنية ووجوه الإعجاز فيها - وقد بدأ تأثيره الواضح بكل من الرازى والزمخشرى . وبذلك قد جمع بين التراث والمعاصرة .

٤ - لم يكن أيضا معنيا بمسألة التوفيق بين العلوم الكونية والآيات الكونية فى القرآن الكريم كما هو شأن الكثيرين ممن خاضوا فى هذا المجال ، ولذلك كاد أسلوبه يخلو من الأخطاء المنهجية فى التفسير . ويبدو هذا واضحا إذا قارناه مثلا بالدكتور محمد توفيق صدقى (١) وهو من رجال المدرسة المصرية التى سلكت هذا السبيل العلمى واعتنوا بالتوفيق بين العلم والدين .

٥ - لم يفته أثناء عرضه لقضايا ومسائل الإيمان أن يرد على بعض الفرق والمذاهب الفلسفية والكلامية الإسلامية أو فرق الملاحدة .

(ب) محمد نجيب المطيعى والتأصيل الشرعى (٣)

وإذا كانت هذه هى طريقة الإسكندرانى فما مدى أصالتها ؟ وما هى الضوابط التى وضعها علماء الشريعة لضمان سلامة التوظيف ؟ وإجابة على ذلك نعرض لرأى المطيعى وموقفه من محاولة الإسكندرانى .

---

(١) سنعرض للملامح الرئيسية لمنهجه فى مبحث مستقل إن شاء الله تعالى .

(٢) راجع مثلا كشف جـ١ /٤٥ ، ٨٣ ، ١٧٦ ، ٢٣٤ .

(٣) هو محمد نجيب بن حسين المطيعى الحنفى ، مفتى الديار المصرية ، ولد فى بلدة المطيعه من أعمال أسيوط،تعلم فى الأزهر ، واشتغل بالتدريس فيه ، تولى القضاء الشرعى سنة ١٢٩٧. اتصل بالأفغانى ، كما عارض الإمام محمد عبده فى حربه الإصلاحية .انظر الأعلام جـ٦ / ٥٠ .

إن دراسة الشيخ " محمد نجيب المطيعى " تعتبر ذات أهمية خاصة فى هذا المجال وذلك للأسباب الآتية : -

١ - أن الشيخ المطيعى باعتباره أحد علماء الأزهر ومشايخه البارزين قد أضفى على هذا الاتجاه فى التوظيف صبغة دينية شرعية تأصيلية ، حيث نراه يضع للسالكين فى هذا الطريق إشارات ضابطة ، وقواعد منهجية ينجو متبعها من الزيغ والخطأ .

٢ - أنه لم يقتصر على هذه الضوابط ، أو بعبارة أخرى أنه لم يضع هذه الضوابط إلا بعد دراسة علمية تأصيلية قدمها لنا فى كتابه الكبير فى علم الهيئه بعنوان : " توفيق الرحمن بين ما قاله علماء الهيئة وبين ما جاء فى الأحاديث الصحيحة وآيات القرآن " [١] .

٣ - وإذا كان قد اهتم بقضية التوفيق فإنه أيضا قد رد على رينان فى كتابه : " تنبيه العقول الإنسانية لما فى آيات القرآن من العلوم الكونية والعمرانية ".

عناية المطيعى بعلم الهيئة :

من الملاحظ أن المطيعى قد اعتنى عناية فائقة بعلم الهيئة ، ففصل كثيرا من مسائله مقارنا بين ما جاء فى هذا العلم وما ورد فى الكتاب والسنة ، معتمدا فيه على كتب التفسير السابقة كالتفسير الكبير للرازى ، وروح المعانى للألوسى ، وتفسير البيضاوى ، وما ورد فيها وفى غيرها من هذا الفن .

وقد اعتمد الشيخ " المطيعى " فى كثير من المواضع على كتاب " كشف الأسرار " للإسكندرانى " بل إنه كان كثيرا ما يشيد بالكتاب ومنهجه [٢] .

(١) وضع الـ[illegible]سيوطى كتاباً بعنوان الهيئة (السنية فى الهيئة السنية) جمع فيه من الآيات والأحاديث التى تتصل بعلم الهيئة والميقات دونما شرح أو تحليل .

(٢) انظر على سبيل المثال توفيق الرحمن ص٩ ،١٠٣، ١٦٧، ١٨٦، ٢٤٠، ٢٥٢ .

وإذا كان " الإسكندرانى " قد عالج دلائل الآفاق فى الجزء الثانى فى " كشف الأسرار " كما سلفت الاشارة إلى ذلك ، فإن الشيخ المطيعى قد عالجها فى كتابه الذى يبلغ ثلاثة أضعاف ما كتبه الإسكندرانى ، أى أنه كان أكثر تفصيلا وبيانا من الأسكندرانى .

فقد بدأ " المطيعى " فحدد أقسام علم الهيئة : الوصفى ، والطبيعى ، والعلمى ، مبينا لنا ما ينبغى تعلمه والعناية به من قبل المفسر ، ويؤكد على أن " البحث فى القسم الوصفى من علم الهيئة لازم وضرورى لفهم آيات القرآن والأحاديث النبوية المتعلقة بما ذكر ، وأن البحث فيما يتعلق بالقسم الطبيعى والقسم العلمى فذلك كمال إنسانى كالبحث فى سائر العلوم التى لا يتوقف عليها فهم آيات القرآن والأحاديث " (١).

وهذا يقتضى متابعة البحوث والدراسات العلمية ، وأن يكون مسلما بمبادىء العلوم ومنطقها ومناهجها المختلفة. وهذا الاهتمام من المطيعى ليس بغريب أو طارىء على الفكر الإسلامى ، وإنما هى دعوة للتجديد وإحياء الظاهرة تارة أخرى ، فلقد سبق المفسرون وغيرهم إلى الاستعانة بالعلوم المختلفة كالهيئة والتشريح ، وما يتعلق بالأدوية (الصيدلة) وأجزائها وتركيبها ومنافعها .....

ضوابط التسخير والتفسير :

من القواعد والأسس الضابطة التى حددها الشيخ المطيعى ، والتى ينبغى على المفسر ومن يعمل فى هذا المجال اتباعها ، ما يلى :

١ - أن القرآن الكريم والسنة النبوية لم يفصلا القول فيما يتعلق بالسماوات والأرض والنجوم وغيرها من المخلوقات وإنما أكتفى القرآن بهذه الإشارات التى قصد بها الحق " حض عباده وحثهم على النظر فى مخلوقاته سبحانه لا سيما

---

(١) توفيق الرحمن ٢٥٧ .

فى السماوات وما منها وما فيها [١] .

٢ - الاستفادة الحقيقية من هذا النظر ، والتركيز على الأسرار والآيات والبراهين التى من شأنها التدليل على وجود الخالق وإحاطة علمه بالكائنات ، وتمام إراد ته " وبذلك يتم الاستدلال على المطلوب الذى سبقت له الآيات القرآنية بأكمل وجه وأتمه " [٢] .

٣ - أنه لا ينبغى للمفسر أن يحمل الآيات القرآنية إلا على ما اتفق عليه الجميع وما علم بالحس والعيان ، أما المسائل التى تتعلق بالعلل والأسباب الخاصة بهذه الظواهر التى تختلف باختلاف الراصد وآلاته والزمن ... فلا يتوقف عليها فهم شيء من آيات الكتاب العزيز والسنة المطهرة . ومن هنا نعلم لماذا يرى من الضرورى العناية بالقسم الوصفى من علم الهيئة [٣] دون القسمين الآخرين .

٤ - أن التفسيرات العلمية ، وما ينتج عنها من استنباطات عقلية ، إنما هى اجتهادات لذويها ، فلا ينبغى الاعتماد عليها فى تفسير النص القرآنى ، ما لم يقترن ذلك بالعلوم النقلية .

يقول المطيعى : " ولا يلزمنا فهم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتعلقة بما ذكر والوقوف على ما ترمى إليه من الأغراض العالية إلا معرفة ما دلت عليه مما اتفق عليه الجميع وعلم بالحس والعيان . وأما ما يتعلق بالعلل والأسباب التى تختلف باختلاف الآلات الرصدية حسب اختلاف الأزمنة وتختلف باختلاف الأفهام والأدلة الحسابية والهندسية صحة وفسادا ، فلا يتوقف عليه فهم شيء من معانى آيات القرآن والأحاديث المتعلقة بما ذكر ولا هى تتعرض لشيء منه ، بل ترك الله ذلك لذوى العقول

---

(١) توفيق الرحمن ص٢٥٨.

(٢) توفيق الرحمن ص٢٥٢.

(٣) توفيق الرحمن ص٢٥٧ ، ٢٥٨.

والهمم العالية من عباده الذين فطرهم على حب البحث والاستطلاع على حقائق الكائنات علوية كانت أو سلفية بقدر طاقتهم البشرية [(١)] .

وإذا كان المطيعي قد وضح هذه الضوابط وبينها أتم بيان فإن هناك بعض الاتجاهات الأخرى التي قالت في مسائل هي صلب الدين بأراء علمية تتعارض مع الكتاب والسنة ، نعرض لنموذج منها :

(جـ) محمد توفيق صدقي

لقد اعتنى الدكتور محمد توفيق صدقي في كتاباته بقضيتين : الأولى هي التوفيق بين النصوص الشرعية وحقائق العلوم الكونية . وأما القضية الثانية فهي تعريف العلوم ، فيقول "وستسمعون مني في سياق هذه المحاضرات تعريب كثير من الألفاظ ، وتطبيق حقائق هذه العلوم على نصوص الديانة الإسلامية الغراء " [(٢)] .

فأما قضية التعريب التي أشار إليها فإنها مسألة مثارة الآن وهي في حاجة إلى بحث ونظر لأنها تمثل لب التقدم العلمي للأمة ، وهي ليست وليدة هذا الزمن ، فلقد سبق العلماء الأوائل في هذا الفن ، إلا أنها تعد في هذه الفترة دعوة صريحة إلى بعث الروح في الحركة العلمية والثقافية لهذ الجيل ، ومن ثم فإنها ذات أهمية خاصة فلقد وقعت في زمن كانت ترزح البلاد فيه تحت وطأة الاحتلال . وكان الاستشراق والتبشير يعملان فيها بكامل قوتهما .

وأما مسألة التوفيق هذه فقد شابها كثير من الخلط . ولعل هذا يرجع إلى سيطرة نظرية دارون في هذه الآونة ، وسعيه نحو التوفيق بينها وبين نصوص الشرع ، ويبدو ذلك واضحا في تفسيراته لخلق آدم عليه السلام كتفسيره لقوله تعالى : (إن مثل

---

(١) توفيق الرحمن ص٢٥٧.

(٢) دروس سنن الكائنات ٢/١ ، ١٨٧/٢ .

عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) [1] يقول : " الضمير في قوله : خلقه عائد على ما أرى إلى المسيح عليه السلام لأنه هو موضوع الكلام أي أنه خلقه من تراب كما خلق آدم ، ومن المعلوم أن المسيح لم يخلق من تراب فيكون آدم مثله ، وعليه تكون هذه الآية أيضا لنا لا علينا إن قلنا بمذهب دارون " [2].

ومن المسائل التي انحرف في تفسيرها - الملائكة - حيث ذهب فيها مذهبا غريبا فقد جرّه الاعتماد على اللغة إلى تفسيره الملائكة بأنها نوع من الميكروبات ، فيقول بعد أن تأول الآيات في الملائكه " والذي أراه أن الميكروبات هي رسل الله في هذا العالم فيجوز أن تسمى ملائكه ... " [3] .

ثم ذهب يؤول آيات الملائكة بتأويلات غريبة وعجيبة وسنورد نص مقالته ليقف عليها القارىء ، ويعلم ما فيها من مخالفة صريحة لنصوص حديثية وقرآنية .

فما ذكره وإن قبل في تفسير الجن أو دخل تحت مسمى جند الله ، فإنه لا يمكن أن يقبل في تفسير الملائكة ، لأنه يتنافى مع الحديث الصحيح الوارد في تفسير الملائكة والذي بين ممّ خلقت الملائكة ، نص الحديث يقول : " خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم " [4].

---

(١) سورة .

(٢) الدين في نظر العقل الصحيح ص١٠١ ، ١٠٢ وانظر أيضا ص٩٦ وهو كتيب لطيف تحدث فيه عن البراهين العقلية على وجود الخالق سبحانه وتعالى ، وصفاته ، كما تحدث أيضا عن الروح والبعث والنبوة ، سلك في إثباتها مسلك أهل النظر .

(٣) دروس سنن الكائنات ٢٠٤/٢ .

(٤) مسلم كتاب الزهد ، باب تشميت العاطس جـ ١٢٣/١٨ ، مسند احمد ١٥٣/٦ .

ملحـــق :

نص مقالة د. محمد توفيق صدقى فى الملائكة

لنا فى فهم معنى كلمة " مَلَك " وجه آخر غير ما يفهمه أكثر الناس ، وذلك أن هذا اللفظ مشتق من " مألك "، بضم اللام وفتحها وهو اسم الرسالة ، وقيل مأخوذ من لفظ (لاك) إذا أرسل ، وعليه فكلمة مَلَك تطلق على كل رسول .

فما يرسله الله تعالى إلى هذا العالم من المادة أو قواها يصح لغة أن يسمى ملكا بلا نزاع فالريح يسمى مليكا أو رسولا من الله ولذلك قال تعالى فى الرياح :
(والمرسلات عرفا)،والرعد كذلك ملك لأنه يرسله الله تعالى لتخويف عباده.وهكذا مما فى هذا الكون من قوى المادة العظيمة كالمغنطيس والكهرباء،وإلى هذا الرأى يشير قوله تعالى (ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) فإن الواجب أن تكون بين المعطوفات مناسبة فعطف الملائكة على الرعد يشير إلى أن المراد منها بعض القوى الطبيعية كالكهرباء التى تحدث الرعد والبرق ، ولعدم فهم بعض المفسرين هذه المناسبة فى هذا العطف زعموا أن للرعد ملكا بالمعنى الذى يفهمونه .

ونحن إذا سمعنا قوله تعالى (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم) لا يتعين عندنا أن نفهم منه ما يفهمون ، فعزرائيل لم يرد ذكر اسمه فى القرآن ولا فى سنة صحيحة وإنما هو اسم مشهود عند اليهود كانوا يسمون به بعض الناس وله عندهم عدة صيغ أخرى ولذلك لا نؤمن بوجوده .

والذى أراه أن الميكروبات هى من رسل الله فى هذا العالم فيجوز أن تسمى ملائكة ، ومنها ما يحدث الأمراض المختلفة ، ولا تتحلل جثث جميع الموتى إلا بالميكروبات . فإذا تحللت الجثث خرجت منها غازات وأجسام متنوعة ، وإذا ذهبنا الى أن الروح عبارة عن جزء من مادة الأثير متحد بالجسم لا نستبعد خروج الروح عند انحلال الجسم بسبب عمل الميكروبات فيه ، وعلى ذلك يحمل قوله تعالى (ولو ترى إذا الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون) الآية .

فغمرات الموت من (غمر) ومعناها وجود الجسم فى أشد دركات الموت التى تغمره وهو وقت انحلال الجثة ، وبسط اليد كناية عما تفعله الميكروبات بها من التحليل والإفساد ، وقد ورد مثل هذه العبارة كناية أو مجازاً حتى فى حق من هو منزه عن الأعضاء والجوارح فقال تعالى (بل يداه مبسوطتان) (وراجع ١٧ : ٢٩) وقوله (أخرجوا أنفسكم) هو ما تقوله الميكروبات بلسان حالها كما قالت السموات والأرض (أتينا طائعين) والتعبير عن الميكروبات بضمير العاقل هو سنة القرآن من أوله إلى آخره فإنه يعبر غالباً عن كل ما يعمل عملا من أعمال العقلاء بضميرهم ، ومن ذلك قوله تعالى فى الكواكب وهى أجرام جامدة (وكلٌ فى فلك يسبحون) وقوله فى الأصنام (فراغ عليهم ضربا باليمين) لأن المشركين كانوا يعتقدون أنها عاقلة مدبرة . ولرفع التنافس الظاهرى بين قوله تعالى (ملك الموت) بالأفراد وبين قوله تعالى (توفته رسلنا) بالجمع نقول إن المفرد المضاف يعم كقوله تعالى (أحل لكم ليلة الصيام) أى لياليه،فكذلك يصح أن يكون المراد من ملك الموت ملائكته أو رسله أى ميكروباته وهى عادة من النوع الباسيلى - كما تقدم .

ومن أمثلة ذلك قولهم "حلت دودة القطن بأرض فلان "أى دودة ، فالمراد الجنس لا الفرد. ولا يتوهم أحد مما ذكر أننا ننكر وجود بعض أنواع أخرى من جنود الله التى لا يعلمها إلا هو ، كلا ثم كلا فإن الإيمان بالملائكة بالمعنى المشهور فرض على المسلم ، ومما يجب علينا الإيمان به أن للوحى ملكا (جبريل) وهو ليس من قبيل ما ذكرناه ، وإنما مرادنا أن الميكروبات مما يدخل تحت لفظ الملائكة وليسوا هم كل الملائكة .

وآية فاطر التى ورد فيها ذكر الأجنحة للملائكة يمكننا أيضا تطبيقها على الميكروبات ، فقد سبق أن لبعض الميكروبات أهدابا مثنى (كما فى ميكروبات الكوليرا) فإن لها هدبين أحيانا فى طرف منها وإذا اجتمع أثنان منها والتصقا معا جاز أن يكون لهما ثلاثة أهداب ، ولميكروب الحمى الراجعة أربعة أهداب ، وللتيفود أهداب عديده (يزيد فى الخلق ما يشاء) ولا شك أن الجناح يطلق على الجنب واليد والعضد والإبط ومنه قوله تعالى (وأضمم يدك الى جناحك) فلا مانع من إطلاقها

على هذه الأهداب التى هى بمثابة الأيدى للميكروبات . على أننا لسنا فى حاجة إلى تطبيق هذه الآية على الميكروبات ، فإنه ليس المراد من كون الميكروبات من الملائكة أن كل ما يسمى ملكا يكون له أجنحة ويكون عاقلا مكرما عند الله ، بل المراد أن كل ما هو خاضع لأمر الله يرسله متى شاء فهو من ملائكته أى رسله .

هذا ولا يتوهم من قوله تعالى فى سورة العنكبوت مثلا عن لسان الملائكة (إنا مهلكو أهل القرية رجزا) الآيات ،أن القرآن - ككتب الأمم الأخرى - ينسب الى الملائكة الأعمال التى تجرى فى هذا العالم حسب السنن الإلهية المعتادة كنسف القرى وقلب الأرض بالثورات البركانية فإن هؤلاء الملائكة كانت وظيفتهم قاصرة على إخبار ابراهيم ولوط بما قدره الله لقوم لوط ولزوجة وعلى إشاده إلى ما يجب عمله حتى ينجو مما سيحل بهم ، وإنما عبروا بتلك العبارات التى يفهم منها أنهم أنفسهم هم الفاعلون لكيت وكيف لأنهم رسل الله أرسلوا [1] بأمره وإرشاده ليكونوا نائبين عنه تعالى فى تبليغ ما أراد للوط فهم متكلمون عن الله تعالى وبلسانه جل شأنه ، فالمهلك والعالم بحال الناس والمنزل الرجز هو الله الذى أمرهم أن يقولوا عنه ذلك ، وقد تقدم لهذه المسألة نظير فى قصة مريم وجبريل عليهما السلام (راجع صفحة ١١٨ من الجزء الأول) ولذلك قالت الملائكة للوط (إلا امرأته قدرنا أنها لمن الغابرين) كما فى سورة الحجر مع العلم بأن الله تعالى وحده هو الذى قدر كل شيء وإنما هم مبلغون بأمره عن قدره وعليه فالتقدير فى سورة العنكبوت هو هكذا : (ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا تبليغا عنا إنا مهلكو أهل هذه القرية ... قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها) اى قالو عنا إننا نعلم بمن فيها (وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك الا أمرأتك كانت من الغابرين ، أنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ، ولقد تركنا فيها آية بينة لقوم يعقلون) فالمتكلم الحقيقى فى كل هذه الآيات هو الله تعالى كما هو ظاهر من آخرها والملائكة إنما يرددون هذه العبارات لتبليغها إلى لوط بالنيابة عن الله تعالى . فافهم ذلك ولا تكن من الجاهلين [1].

---

(١) دروس سنن الكائنات ص٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ .